مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٤، العدد ١، ربيع ١٤٣٩هـ
صفحة ١ – ١٦

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
jal-lq.ut.ac.ir

أظلال صورة بيروت في شعر محمود درويش

كبرى روشنفكر[١]، حامد پورحشمتي[٢]*

١. أستاذة مشاركة، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران
٢. طالب دكتوراه، قسم العربية وآدابها بجامعة رازي، كرمانشاه

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/٨/١٦ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/٦/٣)

الملخّص

لقد اهتمّ الشعر الفلسطينيّ المعاصر بالمدينة اهتماما فائقا؛ لأنّ الأساس في الصراع القائم بين الفلسطينيّ والصهيونيّ كان وما زال يحوم حول المكان والأرض؛ فظلّت المدن واستدعاءها فيه ينبوع خير وعطاء تتدفّق جداوله المنسالة في ضمير الشاعر الفلسطينيّ لتسوق صوره الشعرية نحو هدف محدّد تخصّه شاعريته، ولكن تكرارها في شعر محمود درويش مصدر إيحاء ينمّ عن ذاتيته ويرسّخ هويته المقاومية مستعينا بدلالات ورموز تصل بالمتلقي إلى لجّة موقفه الشعوريّ والاجتماعيّ ونظرته إلى مكان انحدر منه أصل الشاعر أو لم ينحدر. كانت بيروت في شعر محمود درويش مدينة احتلّت معظم التكرارات عن المدن بحيث يدلّ تكرارها المتعاقب على صلة وطيدة بين الشاعر وبينها كدلالات رمزية عديدة يستخرجها وهي تتراوح فيها بين تجربة الحزن والمأساة، والسطوع والازدهار، فضلا عن ذلك توحي مدينة بيروت لدى الشاعر باسم الأرض الفلسطينية وذلك حين تترسّخ جذورها عبر الاقتراب من تراث الشاعر والاتّصال بالمتغيرات الزمنية الّتي تحدث ضربا من التناسق الزمكانيّ بينه وبين المدينة. ترعرعت هذه الدراسة المستفيضة من خلال المنهج الوصفيّ – التحليليّ لتعالج أصداء صورة مدينة بيروت في شعر محمود درويش مشيرة من ثناياها إلى الدلالات والصور الكامنة من تكرارها في جميع القصائد على تحليل النصوص الأدبية وفك الرموز والدلالات فيها.

الكلمات الرئيسة

بيروت، الشعر الفلسطينيّ المعاصر، محمود درويش، المدينة.

* الكاتب المسؤول
Email: poorheshmati@gmail.com

Archive of SID
www.SID.ir

مقدمة

لقد شغل المكان، الفكر البشري منذ القدم وذلك أنّه عامل مشترك له مع الحركة والحياة، يقدّم حلّا منقذا للمبدع حين يريد الهروب (أمين، ٢٠١٣م: ٢١٤)؛ فيشكل المكان امتداد الزمن في البشر والهوية الّتي تخلق صورا للتعريف بالذات والعلاقة بين الفرد والعالم. تحمل كلمة المكان ولاسيما المدينة الكثير من دلالات تسرّبت ملامحها في معظم الميادين المعرفية ووجدت أصداءها في أدب المقاومة كالشعر الفلسطينيّ المعاصر الّذي كان فيه الحبّ للأرض ناتجا عن بلورة الفكرة المقاومية؛ فالشعر الفلسطينيّ هو شعر المكان أو شعر يخصّ المكان على الإطلاق وذلك أنّ موضوعه، وخياله، وتأريخه انعقد جميعها بأرض تحوّلت إلى هاجسة في المخيلة الشعرية الفلسطينية وبخاصّة المدينة الّتي تعدّ إطارا مكانيا لما يجيش فيه المجتمع من الحركات والتكوينات المتتالية للقيم وأنماط الحياة (أبوغالي، ١٩٩٥م: ٦٣)؛ فتمثّل المدينة للشاعر الفلسطينيّ عالما خصبا زاخرا بالنماذج البشرية، والحياة، والمفارقات الّتي تمكنه من رصدها والعثور فيها على عوالم لا حدّ لها من التجارب والأحاسيس.

أمّا المدينة في شعر محمود درويش فبوصفها إحدى الظواهر الفنّية البارزة في قصائده، تتنوّع مظاهرها بالحالة النفسية والشعورية الّتي أحدقت بالشاعر أثناء تجربته الشعورية ولحظة الإبداع؛ لقد كانت وظيفة المدينة في شعر محمود درويش ولاسيمّا مدينة بيروت استجابة عاطفية لتشخيص عالم المحسوسات الّذي يتناسق مع عالم الواقع وقد يخالفه أيضا، وذلك في صور ومفردات يستعين الشاعر في روافدها بفن الرسم والتصوير لكي يكسب القارئ فكرة أو وجهة نظر عن مفهوم إنسانيّ اجتماعيّ للهوية البيروتية والفلسطينية معا؛ إذ يضمّ بها الشاعر أبعاد الروح الإنسانية ويحظى بالمكوّنات الرمزية والعناصر الإيحائية الّتي تتعاضد على تشخيص جمالية المدينة في شعره وتوظيفها بأساليب عدّة وتشكيلات فذّة لتشييد الرؤية الشعرية للواقع أو حسب تخييل الشاعر؛ إذ هنالك بعض المواضيع، والأفكار، والصور الأثيرة الّتي تغلبه أحيانا، يكرّرها درويش لمواكبة جميع الأحداث المتّصلة بقضية مدينته المحبّبة/بيروت بغية التأثير في المخاطب أو إزالة الستار عن حسّ باطنيّ يلازمه دوما من خلال الحياة. لذلك إنّ الهدف الجوهريّ الّذي تتابعه هذه الدراسة هو الكشف عن صورة مدينة بيروت في شعر محمود درويش بوصفها مدينة غير فلسطينية توقّف فيها الشاعر مطرودا وأثّرت أحداثها من السلبية والإيجابية في صوره الشعرية ومدى

Archive of SID

www.SID.ir

اقترابها من الأحداث الفلسطينية المؤلمة؛ علماً بذلك يتمحور هذا البحث حول سؤالين رئيسين وهما:

١. ماهو دور مدينة بيروت في شعر محمود درويش بين الدواوين والقصائد إحصائيا ودلاليا؟

٢. كيف يتمّ تقديم صورة مدينة بيروت ودورها التوظيفيّ في شعر محمود درويش على أساس الفكرة، والواقع، والرمز؟

وأما بالنسبة لخلفية البحث فقد كثرت الدراسات الّتي تناولت موضوع استدعاء المكان ولاسيما المدينة في الشعر العربيّ، منها: رسالة «توظيف المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر» للباحث خالد راضي خليفة مصطفى؛ وأطروحتا «دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد ١٩٧٠» لجمال مجناح؛ و«جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر» لمحمد صالح الخرفي؛ وكتاب «المدينة في الشعر العربي الحديث» لعبدالله رضوان؛ والآخر هو «المدينة في الشعر العربي المعاصر» للباحث مختار علي أبي غالي؛ وأيضا «صورة المدينة في الشعر العربي» لزهير عبيدات.

ولكن ما كتب عن المكان في شعر محمود درويش على الإطلاق والمدينة خاصّة، يشمل هذه الدراسات:

دراسة موسومة بـ «التقاطب المكانيّ في قصائد محمود درويش الحديثة»، كتبتها رقية رستم بور ملكي سنة ١٣٩١ش وقامت فيها بالتعبير العامّ عن صورة المكان في شعر درويش وبيان دلالاته ضمن مفهوم التقاطب على أساس أعماله الشعرية الحديثة؛ لذلك أشارت الباحثة في بحثها المذكور إلى مضامين درويش الشعرية الّتي أصبحت محفوفة بالمفردات الدالّة على المكان، وهذا المكان الّذي يهمّ الباحثة ليس هو المكان الحقيقيّ بأبعاده المحدّدة ومقاييسه الموضوعية المتعارف عليها، بل مكان مصوّر تركز فيه على التقاطبات الّتي قد وظّفها الشاعر في شعره كثنائية الوطن والمنفى، وثنائية هنا وهناك، وثنائية الانقطاع والاتصال و...

رسالة «دلالة المكان في شعر محمود درويش»، ناقشتها فاطمة شيرزاد سنة ١٣٩٢ش في جامعة الزهراء عليها السلام، وقسمّت محاورها إلى ثلاثة فصول؛ أوّلها نظرة عامّة إلى المكان، والثاني يخصّ سيرة محمود درويش وأدبه المقاوميّ، وثالثها يتناول صلب البحث وهو دور المكان ودلالاته المختلفة في أدب الشاعر من حيث أن يكون رمزيا أو واقعيا كما تدرس الباحثة المكان

Archive of SID

www.SID.ir

ضمن مفهوم التقاطب (ثنائيات) كأداة ضرورية لمعرفة صورته في شعر محمود درويش.

دراسة عنونت بـ «المكان وتحولات الهوية عند محمود درويش»، وهي رسالة كتبتها ليانة عبدالرحيم كمال عبدربة سنة ٢٠١٢م في جامعة بيرزيت من فلسطين، وفرّعتها إلى ثلاثة فصول؛ الفصل الأول يزاول العلاقة بين المكان والهوية عند الفلسطينيين عبر نقاط متعدّدة تطرح سؤال الهوية وسؤال المكان، والثاني يتّصل بتحولات الهوية بالتوازي مع المكان عند الشاعر داخل الوطن ويعتمد الفصل الأخير على تحولات الهوية إبّان خروج الشاعر من الوطن إلى المنفى ثمّ عودته إلى حدود الوطن، في الواقع تقصد الباحثة في دراستها هذه إضاءة تأثير المكان أي الوطن الرئيس في نفس الشاعر إلى جانب المفارقات الّتي يقبلها في هويته وذاتيه من خلال الزمن.

تحسّبا لهذه الدراسات الأدبية الّتي جرت بشأن المقاومة وشعرها لم يكشف عن دراسة تكون قد ارتكزت على صورة مدينة بيروت في شعر محمود درويش، علاوة على جدّة تزوّدت بها دراستنا في الأسلوب والمنهجية، وهي القصد بخطوة واسعة نحو العثور على لمحات هذه المدينة، وإعداد إحصائية شاملة من دورها المكرّر في كلّ القصائد مع تحليلها الأدبيّ والدلاليّ.

المدينة ودورها المقاومي

إنّ المدينة تعبّر عن وجهة النظر النقدية الخالصة، ولها خطاب شعريّ ولغة مجازية خاصة تشبه قصيدة يعيشها الأديب معايشة يومية (الشاذلي، ٢٠٠٦م: ٢٩١) وهي تميزت بمناظرها الخلّابة في رسم لوحات شعرية مفعمة بالحيوية ومتدفّقة بالحياة، وتشكل ساحة فسيحة للشعراء الفلسطينيين الّذين ينهلون من ينابيعها ويتجوّلون بين أحضانها، والحقّ أنّ علاقة الإنسان الفلسطينيّ بالمدينة علاقة تلاحمية تلازمية؛ فهي تجسّد حلقة وصل الفلسطينيّ برحم الأرض وترتبط بهناء الصغر وذكريات الشباب إلى الشيخوخة حيث يكثر الشعور بها تجذّرا وتعمّقا حين يتعرّض وطنه للنهب، والاحتلال، والخطر. انعقدت المدينة في الشعر الفلسطينيّ المعاصر بالحديث عما يعاني الشاعر من ظلم، واستدمار، وضياع يرتبط ذكره بالدعوة إلى القيام لتخليصها من القيود بعيدا عن الانتماء المضيق في المواقف الشعرية لمدينة خاصّة وعن الانحصار في حدود جغرافية محدّدة؛ فكانت أحزان كلّ المدن أحزانه سواء كانت المدينة فلسطينية أو لبنانية، لكنّ المهمّ في جميعها هو البعد المقاوميّ الّذي يجعلها في مواقف فكرية مشتركة. من ثمّ لقد حملت المدينة في الشعر الفلسطينيّ رموزا

Archive of SID

www.SID.ir

فنية ودلالات حثيثة تسهم في تشكيل البنية الجماليّة في النص الأدبي المعاصر؛ فهي رمز للعذاب، ورمز للقبح، والقسوة، ورمز للمرأة أو رمز للوطن بأجمعه.

أمّا المدينة في شعر محمود درويش فيتجلّى حضورها المكرّر في قصائده الّتي لها أشدّ صلة بنبض الحياة اليومية فعلا وفاعلية حيث لا يأتي الشاعر في شأن مدنه بالصورة الواقعة في ساحة الخيال إلّا على قدرما يسرد عن واقع ملموس يعيش كلّ جزئياته؛ فيرسم لنا المدن ولاسيما بيروت مركزا على مكانتها اللفظية وكيفية استقرارها في المقطوعات الشعرية ليحرز من خلالها شبكة من العلاقات والرؤى في تشكيل مكان دراميّ أحاط به.

بيروت في شعر محمود درويش

بيروت مدينة لبنانية اشتقّ اسمها من "بئروت" وبالعبرانية يجمع لبئر (بن يحيى، ١٩٠٢م: ٨)، تقع وسط الشاطئ الشرقيّ للبحر الأبيض المتوسّط وهي بوّابة الشرق ونقطة وصل بين القارات الثلاث؛ أسيا، وأفريقيا، وأروبا. يعيش في هذه المدينة مختلف الحضارات والديانات، وبحكم موقعها الفذّ تستتبّ بين البحر والجبل المحيطين بها وتحمل في جوفها خلفية قديمة تتجاوز آلاف السنين بدخول اسمها نصوصا مكتوبة بالخطّ المساريّ العائد إلى القرن الرابع عشر للهجريّ القمريّ، وبعدما اشتعلت حرب ١٩٧٥م فيها باتت هي وطنا رديفا بصفّ طويل من الأدباء المتوغّلين في فضائلها.

بما أنّ محمود درويش كان من جملة الشعراء الفلسطينيين العمالقة المهتمّين بالمكان والمقاتلين له، تمتاز قصائده بتواجد ألوان المدينة بحيث تبدأ بينها علاقته مع بيروت منذ نزوحه عن فلسطين وتوجّهه إليها؛ وأنّ بيروت كانت له منفى بين سائر المنافي، وملجأ يمنح الشاعر فضاء نفسيا وتجديديا لم يجرّب مثله في أيّ من مدن أخرى لمشابهة أحداثها وكوارثها لما وقع في فلسطين ومدنها؛ في الواقع هو برؤيته لمأساة بيروت يتذكر معاناة الإنسان الفلسطينيّ وقضية موطنه في واقع ملموس؛ فتعدّ لديه بيروت مكانا مرموقا لولادة القصيدة الدرويشية حيث أنشد فيها من أعظم الملاحم الدرامية في الشعر العربيّ خلال سنوات السبعينات والثمانيات كـ "قصيدة الأرض"، و"أحمد الزعتر،" و"قصيدة بيروت" إلى أنّه قال ذويفرت في نفي درويش عن الوطن والتطوّرات النفسية الّتي تقبّلها من خلاله في بيروت إنّ «خروج درويش من الوطن والتحاقه بحركة المقاومة في المنفى البيروتيّ أشبه بدراما خروج فلسطينية» (أبوهشهش، ٢٠٠١م: ٢٣٩).

Archive of SID

www.SID.ir

لقد انطلق الشاعر يكتب بعد التقائه بهذه المدينة وتعرّفه إليها عن هويته السياسية ويحرص على الانتماء إلى المعنى السياسيّ على أساس الأعمال الأدبية الّتي يسمها بقضية هويته الوطنية الفلسطينية والّتي كانت أقلّ ممّا كتبت بعد مرحلة بيروت (ناصر، ٢٠٠٨م: ٢) بحيث تشير أشعاره في هذه المرحلة إلى ذائقة جمالية مليئة بالتفاصيل الّتي تفيد بأنّ المنفى "بيروت" أثّر في هويته تأثيرا بالغا أبعده عن البعد الوطنيّ والنضال المباشر، وتجسّدت قمّته فضلا عن حكايته النثرية في أعماله الأخرى كـ "يوميات الحزن العادي"، و"في حضرة الغياب"، و"في ذاكرة النسيان" والّتي يزاول فيها قضية إبعاده وطرده إليها؛ فتحظى بيروت بحالة مكانية زمانية خاصّة في إنتاجات الشاعر، يتعامل معها شعريا بشكل مكثّف؛ لأنّها تنشر له ذكريات عديدة وروائح هنيئة كما يوجد مثيلها في بقية الظواهر الكونية والطبيعية كرائحة الشمس، والبحر، والدخان، والليمون (عبد ربه، ٢٠١٢م: ٥٦).

تعدّ بيروت في شعر درويش من أكثر المدن تواترا حتّى من الممكن أن يدّعي بأنّه لم يزاولها أحد من الشعراء الفلسطينيين على قدر ما اعتنى هو بشأنها؛ فهي تحمل لديه صورا ورموزا عديدة بعضها للحزن والمأساة بتشبيهها بالدمعة (درويش، ٢٠٠٥م: ٣٣٤/٢)، أو للسطوع عن طريق تشبيهها بالنجم (درويش، ٢٠٠٥م: ٥٠٦/٢)، أو للاستغاثة بتجسيدها في صوت يصدر من الضحية (درويش، ٢٠٠٥م: ٥٣١/٢) وهي ظهرت في شعر درويش في قمّة أحاسيس الشاعر بالمنفى؛ فعلما بذلك قبل أي ممارسة تحليلية لمدينة بيروت من المفضل أن يؤتى بإحصائية شاملة ترسم تكرارية لفظتها في جميع قصائد الشاعر بحيث إنها تؤيد على بلوغ عدد التواتر لها ٩٧ مرّة كما يلي:

Archive of SID

www.SID.ir

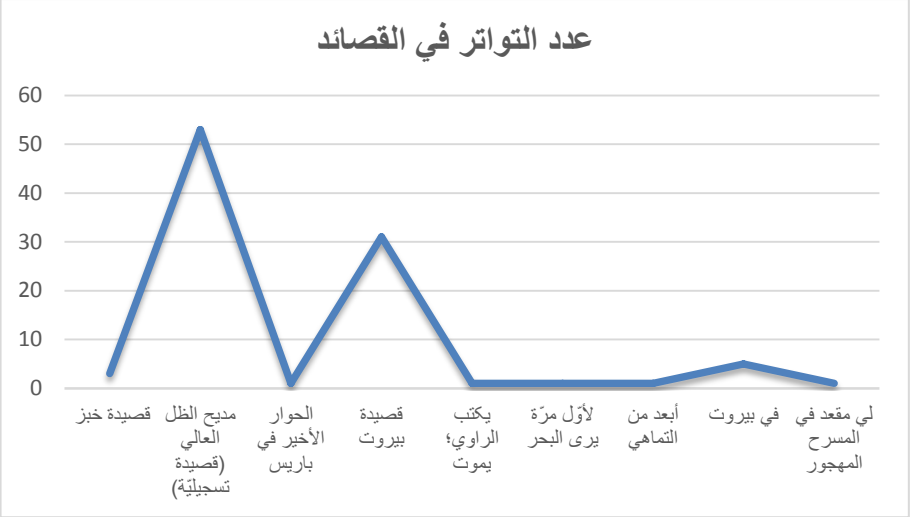

هذا وقد انتخب درويش عناوين شعرية تقترب من بيروت لفظة ومضمونا، منها قصيدة "بيروت" الواقعة في ديوان "حصار لمدائح البحر"، وقصيدة "في بيروت" في ديوان "أثر الفراشة". ويحمل ديوانه "أعراس" أيضا صورا من الحرب الأهلية في لبنان عامّة وبيروت خاصّة ولاسيما جلبته من دمار وخراب لأمكنتها، ويتناول في قصيدة "مديح الظلّ العالي" الّتي كانت من أكثر القصائد الدرويشية تواترا للفظة بيروت (٥٣ مرّة) - كما بينه الرسم الأعلى والجانب الدلاليّ الّذي يلحقه - وصف الدمار في بيروت بوصفه داعيا لانهيار المكان العربيّ النموذجيّ للوحدة والتضامن؛ فيقدّم الشاعر في قصيدة "مديح الظل العالي" تراجيديا المكان الّذي يرتبط بالرحلة الأوديسية الفلسطينية داخل بحار الغربة كنتاج للحرب الأهلية في بيروت حيث كان دور الفلسطينيّ فيها مشبها لإغريقي ابتعد في مواصلة رحلته عن الوطن، كما نرى أنّه يعنى بها منصرفا الى الأصعدة الشعورية والملحمية:

بَيروتُ المَدينةُ لَيسَت امرَأتي/ وَبَيرُوتُ المَكانُ مُسَدَّسِي الباقِي/ وَبَيروتُ الزمانُ
هُوِيةُ «ألانِ» المُضرَّجِ بِالدُّخانِ[1] فِي كلِّ مِئذنةٍ (درويش، ٢٠٠٥م: ٢/٣٥١)

يصف الشاعر مدينة بيروت وصفا معزولا عن حيز الحقول الرومنتيكية ولذلك سلب منها أن تكون له في التشبيه مرأة خيالية؛ لأنّ الشاعر يتّقي أن يورد المدينة واشتياقه لها في الأوصاف الغزلية الحسية البحتة؛ فهو لو قام بها لقلّل بهذا النهج من شأنها؛ ـ ولو لم يلتزم بهذه العقيدة

١. المضرّج بالدخان: الملطّخ به.

Archive of SID

www.SID.ir

تماما وقد يصف المدينة في مكان آخر حبيبة خيالية له (درويش، ٢٠٠٥: ٥٠٥/٢) ـ من ثمّ يميل عنها إلى الأوصاف الملحمية بجعلها آلة بنّاءة للحرب والنضال "بيروت المكان مسدّسي الباقي"، ولكن لا يكتفي بهذا التعريف للمدينة بل يعتبرها هويته الحالية الّتي تختلف عن هويته السالفة، يخطر هذا المعتقد في الذهن عندما نرى في اللاحق أنّه يصف أكاذيب الحكام الّذين كانوا قد يبشّرون بالأندلس ـ هي مدينة الحلم العربيّ ـ بالدنوّ من زمن بيروت الّذي يمثّل المستقبل العربيّ الراهن وهويته المتخبّطة في مستنقع الحروب، فتصير بيروت في مواصلة هذه السطور الشعرية مذكرّة بأحداث القدس، وحلب، والأندلس، وذلك حينما يخاطب بيروت بأنّها للفلسطينيّ المنفي عن موطنه/ فلسطين تشبه الأندلس أثناء محاصرة حلب:

هَل كنّا هواء مالحا كي تفتَحي رئتيك لِلماضِي/ وَتَبني هيكلَ القُدسِ القديمة.
كم سنة/ .../ وعروشنا قصب/ في كل مئذنة/ حاوٍ، ومغتصب/ يدعو لأندلس/ إن
حوصرت حلب (درويش، ٢٠٠٥م: ٣٥٢/٢-٣٥٦)

يبتغي الشاعر هنا أن يقيم الترابط بين زمنين في أربعة مدن وهما زمن الحال الّذي ظهر في بيروت بدمارها، والّتي تبين موقف المدن الأخرى في خارج بلدانها، أينما كانت في فلسطين أو في سوريا، والآخر هو زمن الماضي الّذي جعل فيها الشاعر مدينة بيروت تشبه مدينة أخرى وهي أندلس بوصفها ملجأ نهائيا للعرب الأسلاف كما وقع مثيله لمحمود درويش الشاعر المطرود الّذي لم يجد ملاذا مأمونا غير بيروت ليلجأ إليه. والحقّ يستطرد منها إلى القضية الفلسطينية، والسورية، والأندلسية استطرادا مضمرا ذكيا كان من أهداف محمود درويش الباذل جهده أن ينظر بهذه الطريقة أو بطرق أخرى إلى المضاعفات الإيجابية والسلبية في التفاعل الفلسطينيّ مع حياة الثقافة اللبنانية أو في التفاعل اللبناني مع القضية الفلسطينية (وازن، ٢٠٠٦م: ١٤١).

بيروت واستلهام القيم

لقد ظلّت بيروت في شعر درويش رمزا للقوة والانتصار، وذلك حينما يجعلها تعادل الجنّة الخالدة قيمة ومكانة لآدم عليه السلام الّذي بزعم الشاعر أنّ خروجه منها أجدى له الغلبة الحقيقية على الدنيا على نحو فلسطينيّ يخرج من بيروت ويشاركه في هذا الموقف:

لَستُ آدمَ كي أقولَ خَرَجتُ مِن بَيروتَ مُنتصِرا عَلَى الدُّنيا/ وَمُنهزِما أمامَ اللهِ
(درويش، ٢٠٠٥م: ٣٨٨/٢)

Archive of SID

www.SID.ir

يلاحظ أنّ الشاعر أصبح محبطا ممّا أصابه وانتابته أحاسيس الهزيمة، وذلك للقرار الّذي اتّخذه على مغادرة بيروت وترك النضال فيها؛ في الواقع يرفض الشاعر أساس الخروج من هذه المدينة والمغادرة لها، ويندّد بهذا الواقع أكيدا مرتكزا على الفكرة الّتي استقيت من القصّة الدينية ناقلة الزمن الأزليّ إلى الزمن الحالي كما فعله أثناء القياس بين مدينة بيروت والمدن السالف ذكرها؛ فالخروج منها للفلسطينيّ يعادل الخروج من الجنّة لآدم عليه السلام وهما يخسران بهذا الخيار، ولكن يبدو أنّ تلميحه الدينيّ يأتي بصورة مخالفة؛ لأنّه يستدعي شخصية آدم عليه السلام مباشرا ويعدّ هزيمته أمام الله سبحانه وتعالى منطقية طبيعية متوقّعة؛ ففي رحلة آدم عليه السلام المتطوّعة انتصار وهزيمة، ولكن خروج الشاعر من بيروت مجرّد هزيمة لا نصر فيها يكون إعلان سقوط وفشل غير صالح للتبرير والاحتجاج. الحق أنّ الشاعر يرى في خروج آدم عليه السلام التغلّب على الدنيا، غير أنّه مازال يرغب في بيروت أن يقاوم الحياة ويذوق مشقّاتها لتثمر هذه المقاومة الظفر والنجاح للمهزومين ولا هزيمة أمام الله؛ فيتمّ كلّ ذلك لتعظيم المدينة ورفع شأنها.

على الرغم من أنّ الشاعر يتوق إلى بيروت ولا يرغب في الخروج منها، غير أنّه كان قد يكابد فيها اندلاع الحرب والضغوط السياسية الّتي تفرض عليه وتذكره من جديد بالأحداث الفلسطينية المشبهة لها؛ فيوّجه خطابه في لحظة اليأس والقنوط إلى الله المختبر في بيروت وخارجها صمود الشاعر واصطباره على الفراق والبعد عنها:

وحّدنا بمعجزة فلسطينية.../ بَيروتُ قِصّتُنا/ بَيروتُ غُصّتُنا/ وَبَيروتُ اختِبارُ اللهِ/ مَن أعطاك هذا اللُّغزَ[1]؟ مَن سَمّاك؟/ مَن أعلاك فَوقَ جِراحِنا لِيراك؟/ فأظهر مِثلَ عَنقاء الرماد مِن الدّمارِ (درويش، ٢٠٠٥م: ٣٣٦/٢)

يرى في هذا المقطع أنّه لقد كانت بيروت وقضيتها من أهمّ المواضيع الّتي استقطبت فكرة الشاعر نحوها بسبب تكرار خصّصه بها وهذه المرّة ثلاث مرّات ليحقّق الشريطة الأولى للتكرار وهي التأكيد والإلحاح اللّذان يشيدان أساس حضور المدينة وروافدها في شعره؛ ثمّ يتّوجه الشاعر إلى إنشاء الوشائج الّتي تربط قضية بيروت بقضية موطنه معلنا بأنّ قصّتها ليست غريبة ومنفصلة عن قصّته وقصّة شعبه؛ فيدرك من هنا أنّ نفس القصّة

١. اللغز: ما يعمّى به أو ما كان ملتبسا مشكلا.

Archive of SID

www.SID.ir

بين بيروت وموطن الشاعر مشتركة، ولكن في المواصلة تصل الاشتراكات إلى الأجواء الدرامية الحزينة، وذلك حين يجعل الشاعر المكانين مشتركين في الحزن والمأساة.

أمّا بيروت في المرتبة الثالثة فتتبدّل إلى مجال لاختبار الله وها هو الانسجام مع الخطاب الدينيّ الآخر.

القضية الأخرى في هذه الأسطر الشعرية هي إشارة الشاعر إلى أسطورة عنقاء الرماد الّتي تجدّد روح الحياة بعدما يصيبها من مصائب وكوارث لما يحتويه هذا الرمز من بعث روح التفاؤل، والأمل، والانبعاث (حمدان، ٢٠٠٨م: ٦). يجسّد درويش في هذه المقطوعة شعوره بالحزن والألم على فقد الدافع الرئيس وهو بيروت؛ فيصورّ فيها ما لاقاه في سبيل تحقيق أهدافه لإطلاق سراح المدينة من يد المحتلّين من عقبات وحواجر؛ لذلك يقول "بيروت قصّتنا/ بيروت غصّتنا/ بيروت اختبار الله"، أللهمّ إنّا اعتماده على الرمز الأسطوري "عنقاء الرماد" يجعل المتلقي يدرك أنّ الشاعر لم يستسلم الموت ولم يطحنه الشجن والهموم؛ لأنّه يتثبّت بأنّ "العنقاء" ستنهض من رمادها وتغير مسيرة بيروت المعتّمة في مستقبل قريب.

بيروت واستدعاء التراث الديني

تحسّبا لما تقدّم وما سيعرض في المواصلة تبيّن أنّ عمليّة استدعاء مدينة بيروت وتوظيفها الدلاليّ في شعر محمود درويش تملك تلاحماً بالغاً مع ثقافته الدينيّة، كما يمكن أن يشعر بحضورها الجليّ والباهر في قصيدة "مديح الظلّ العالي" أثناء تعبير الشاعر عن معاناته من قساوة الحصار والحرب حيث تتسرّب بصماتها في خيال الشاعر المستلهم من الآيات القرآنية في شعره لتصبغ المدينة صبغة قداسية:

باسم الفدائي الّذي يبدأ/ إقرأ/ بيروت- صورتُنا/ بيروت- سورتنا./ بيروت-
لا/ ظهري أمام البحرِ أسوارٌ و.. لا/ قد أخسرُ الدنيا.. نَعَم/ قد أخسرُ الكلماتِ../
لكنّي أقول الآن: لا./ هي آخر الطلقاتِ- لا./ هي ما تبقّى من هواء الأرض- لا./
هي ما تبقّى من نشيج الروح- لا/ بيروت- لا (درويش، ٢٠٠٥م: ٢/٣٤٤-٣٤٥)

كما نلاحظ في هذه المقطوعة، يتكلّم الشاعر عن أحد الفدائيين الوطنيين في بيروت مبالغا في التعبير عما قام به الفدائيّ من التضحية والافتداء، ولكن ما يلفت النظر عن بيروت لوحدها هو غلبة النص المستدعى أو الغائب «نص القرآن» على النصّ الحاضر «نصّ

Archive of SID

www.SID.ir

الشعر» وهذه الغلبة للنص القرآنيّ ملموس ومستعار من الآية الشريفة عبر التناص[1]: ﴿**اقرأ بِاسمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ**﴾ (العلق/١). في الواقع يشبّه هنا الشاعر المدينة بوحي ينزل عليه من السماء للإشارة ـ ولو كانت غير مباشرة ـ إلى اتّخاد تحديات المنحى الدينيّ في بيروت فضلا عن المنحى السياسي بحيث يساعدها ما يجمع في حناياه حقولا دلالية تترجّح بين مجال التحدّي والصمود في ألفاظ وتركيبات كـ "بيروت صورتنا" و"بيروت سورتنا" و"ظهر في أمام البحر أسوار". وهي ألفاظ تؤدّي لبيروت التعدّدية وتجتاز إلى الثنائيات المتضادة الّتي هي من أهمّ الخصائص لشعر المقاومة، يعتمَد فيها على المؤثّرات الإيجابية والانتقال من مناخ التشاؤم في الأحداث إلى جوّ التفاؤل أو عكسه (طاهري وقره خاني، ١٣٨٩ش: ٩٥)، بوصفها مركبّا أكثر جاذبية في إدراك القضيتين المتبادلتين اللّتين ليستا بمعزل عن عمق المعاناة الّتي يعيشها الشاعر وشعبه معاناة عنيفة لا توصف؛ فسيطرت عليها الحركة، والتداخل، والتناسق كما سبقت نماذجها في "بيروت صورتنا وبيروت سورتنا" وهي من وجهة التكرار إلى نهاية القصيدة أصبحت شعارا وهتافا مقاوميا للشاعر إلى جانب ازدياد الاستخدام لحروف الإجابة "لا" و"نعم" المضادّة معا عن طريق المونولوج الداخليّ «حديث النفس» ليوسّع الجوّ الشعريّ بالتقاطبات/الثنائيات على قبول الموقف أو رفضه.

بيروت واشتغال الزمن

انعقدت بيروت وقضيتها في شعر درويش بعامل الزمن الّذي يستطيع تطوّره المستمر أن يؤثّر عن كثب في وقائع مأساته الفردية والعامّة في ظلّ اللجوء والاعتصام حيث ربّما تغدو عودته إلى فلسطين منقوصة؛ فالزمن يرتبط ارتباطا وثيقا بحياة الإنسان، ووعيه، وطموحه، وتعامله مع الناس كديمومة محسوسة يقطعها إلى لحظات قصيرة أو طويلة تؤلّف حياته النفسية وتؤثّر في أفعاله تجاه الحوادث، والمواقف، والأشياء (الفريجات، ١٩٩٨م: ١٨٠)، فظلّ درويش يتعايش من خلال الأزمنة المختلفة ليوسّع أجنحته ويمنحه القدرة العالية على التحليق مع بيروت وحدها من جهة ومع الأرض الفلسطينية الذائبة في بيروت ووقائعها من جهة أخرى؛ فلكلّ من هذه الأزمنة البيروتية الّتي تستوعب الفجر، والظهر، والعصر، والمساء، والليلة ـ وفقا لنسق محدّد ـ دلالة ومعانٍ وصفية تخصّها، كما نرى في البدء أنّه

1. Intertextuality

Archive of SID

www.SID.ir

يصبح الفجر نقطة انطلاق لتفقد الطبيعة البيروتية من البحر، والعصفور، والحمام بالمغارة والاحتلال ديناميكيتها ونشاطها:

بيروت فجرا:/ يطلق البحرُ الرصاصَ على النوافذ. يفتح العصفور أغنيةً/ مبكرة. يطيرُ جارنا رفَّ الحمام إلى الدخان. يموت من لا/ يستطيع الركض في الطرقات: قلبي قطعة من برتقال/ يابس (درويش، ٢٠٠٥م: ٣٥٧/٢)

إنّ دراسة أسلوب فكرة الإنسان عن الطبيعة يمكن أن تتأثّر بمكوّنات كالزمن (پارساپور، ١٣٩١ش: ٧٧)، ودرويش أيضا في هذا المقطع تعبيراً عن زمن الفجر لبيروت الآخذة في النهب والاحتلال يتوغّل في التقرير والتسجيل عن مشاهداته في الطبيعة ليرسم - بوصفه شاعرا متأثّرا بالزمن - لوحات شعرية نابضة بالحيوية ومتدفّقة بالحياة، منها التعبير عن البحر الّذي هو في الفجر بدلا من بثّ السكينة والهدوء يطلق الرصاص على مدينة بيروت وأيضا العصافير الّتي تغرّد في مناخ طلق تغريدا مبكرا يتشائم بالحادث الضخم، والحمام الّتي يطيرها الجيران نحو الدخان، والإنسان الّذي يركن إلى الفرار لينقذ حياته من الموت المفاجئ بحيث إنّ كلّها مشهد من الأحداث البيروتية الّتي لا تخرج عن نطاق الخصائص الموضوعية والذاتية، وما يضمّها من مفارقات الوجود ويصلها بحركة النفس بل تقع في زمن الفجر الفاشي عن مكنون الشاعر الفرح والمبتهج لهذا الضوء الّذي يغمر الأحياء، والأغراس، والرياض، لكنّه خلافا لصميمه صورة رهيبة يقدّمها الشاعر من الفجر محاولا تغليب الرؤية الداخلية على الرؤية البصرية وإيجاد حركة زمنية من خلال الألفاظ وهي حركة زمنية طويلة في الفجر تتباطأ ولا تنتهي عمّا قريب كما يقوله الشاعر:

يا فجرَ بيروت الطويلا/ عجّل لأعرفَ جيدا/ إن كنتُ حيا أو قتيلا (درويش، ٢٠٠٥: ٣٥٨/٢)

يعرف أنّ الشاعر ليس قادرا على التنبّؤ بمستقبله الّذي يطرء له، إمّا يحيا وإمّا يقتل من خلال الزمن؛ فيتضرّع إلى زمن الفجر الطويل الّذي لا ينكشف، في الواقع لا يؤدّي الفجر في قاموس الشاعر الزمنيّ دلالة مهدّئة تظهر بعد زوال الليلة وانعدامها بل هو أوّل حادث زمنيّ سجّلت وقائعها المخيفة في خلد الشاعر واقعا موقع الليلة القاتمة الّتي لا تنجلي ولا تستعيض بمكانها عن الضوء والإشراق. تستمرّ هذه الصورة الزمنية من الفجر حتّى أنّها ترد في زمن آخر وهو الظهر الّذي يستمرّ فيه الفجر منذ الفجر ويأتي الموت فيه قريبا من الأبناء عبر انفجارات تذكر الشاعر بما فعلته أمريكا بهيروشيما من قصف المدافع والطائرات؛ لذلك

Archive of SID

www.SID.ir

يجدّد الشاعر طلبه العاجل للمعرفة في يوم بيروت المكسّر في الظهيرة (درويش، ٢٠٠٥م: ٣٥٨/٢-٣٦٠)، ثمّ يمضي الظهر من خلال مشهد يتعدّى بيروت وقضيتها نحو العصر الّذي يتجاوزه الشاعر تجاوزا سريعا بحيث يكتفي فيه بوصف معاناته ممّا وقع حوله من مضاعفات الحرب كازدياد الحشرات، وارتفاع الرطوبة، وارتخاء العضلات باحتقان الأرض في مفاصله وهو وصف من طبيعة الدمار والخراب؛ فيصرخ ويستغيث بالبطل الملحميّ ليظهر ويخرج من قوقعته تغييراً للزمن القاتم والمنبوذ (درويش، ٢٠٠٥م: ٣٦٠/٢)؛ من أجل ذلك كلّ زمن لدى الشاعر يوحي في بيروت بحادثة جديدة وصور مزعجة يحرص عليها كإمكانية من الإمكانيات التعبيرية الّتي يمكن أن يستعان بها على رسم لقطاته المغرية من المدينة من خلال الزمن الّذي يدنو شيئا فشيئا من الزوال والنهاية بدخوله في الليلة.

النتائج

١. كانت بيروت في شعر محمود درويش من أكثر المدن تواترا بعددها البالغ ٩٧ مرّة في جميع قصائد الشاعر لفظة بحيث خلقت كثافتها في شعره مناخا نفسيا وتجديديا قلّما يشعر بمثيلها بين المدن الأخرى من حيث التجربة والوظيفة الشعرية.

٢. تعدّ قصيدة "مديح الظلّ العالي" من أبرز القصائد الّتي يحتفي فيها الشاعر بمدينة بيروت وينجح في تكوين جماليّتها ومعرفتها الصائبة لما في هذه القصيدة من معظم التكارير الّتي تبلغ (٥٣ مرّة) على بناء منظومة كاملة يدخل جمعيها في نطاق من الإشارات والصور المألوفة هادفا إلى قضية الدمار في بيروت وأحداثها مما يتناسق مع ما وقع في موطنه من النهب والفوضى.

٣. تعبّر مدينة بيروت عن غاية أحاسيس درويش بالمنفى بحيث لم تكن هذه الأحاسيس بالنسبة لها سلبية ورافضة بل كانت محبّبة ومنشودة، وتجنح إلى مواقف إيحائية موجبة كالصمود ومواجهة الأعداء أيضاً.

٤. تتسرب ملامح المدينة في لغة الشاعر المتقشّفة متتالية من خلال الخيال والرموز المتطوّرة، لكنّ صورها لا تخلد في حالة واحدة بل تخصّ بعضها للحزن والمأساة، والآخر للسطوع، والاستعانة، والقوّة.

Archive of SID

www.SID.ir

٥. تقترن صورة مدينة بيروت اقترانا متناميا بالتراث كتراث أسطوري تتحوّل به مسيرة بيروت القاتمة إلى مسيرة زاهرة، وتراث ديني يتجسّد في خطابه لله تعالى أثناء اختبار صموده في بيروت، ثمّ في غلبة نص غائب يجعل بيروت شبيهة بوحي سماويّ ينزل.

٦. ترتبط بيروت ارتباطا وثيقا بالزمن وتغيراته الّتي أثّرت في أفعال الشاعر تجاه الأحداث والمواقف؛ وذلك أنّ الشاعر يقصد بهذه العلاقة ضربا من التناسق الزمكاني بين بيروت وأحداثها؛ فيكشف كلّ زمن لبيروت عن صورة تسجيلية جديدة نشأت بتغليب الرؤية الداخلية في الشاعر على الرؤية البصرية مع حركة زمنية تنسال ولا تتوقّف عجلتها.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. أبوغالي، مختار علي (١٩٩٥م). المدينة في الشعر العربي المعاصر. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٢. أبوهشهش، إبراهيم (٢٠٠١م). حول تلقّي محمود درويش في اللغة الألمانية. بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.

٣. أمين، مهدي (١٣٩٢ش). بررسي قصص قرآن در الميزان (موسى وبني اسرائيل). ج٧، مؤسسة قرآني قائمية.

٤. أمين، هيرش محمد (٢٠١٣م). «جماليات المكان في شعر لطيف هلمت (شيخوخة كليوباترا وأطفال المطر أنموذجا)». مجلّة زاكومي سليماني، جامعة السليمانية، العدد ٣٩، صص٢٤٦-٢١٣.

٥. بن يحيى، صالح (١٩٠١م). تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب. بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

٦. پارساپور، زهرا (١٣٩١ش). «بررسي ارتباط انسان با طبيعت در شعر». ادب فارسي. السنة ٢، العدد ١، صص٧٧-٩٩.

٧. الجبر، خالد بن الرؤوف (٢٠٠٩م). غوايات سيدوري، قراءات في شعر محمود درويش. عمان: دار جليل للنشر والتوزيع.

٨. حمدان، عبدالرحيم (٢٠٠٨م). «الأسطورة في مراثي الرئيس الراحل ياسر عرفات». مجلّة جامعة الأقصى، المجلّد ١٢، العدد ١، صص١-٣٣.

٩. ـــــــــــــ (دون تا). محمود درويش الأعمال الكاملة. إعداد علي موة، الاسكندرية: منتدى مكتبة الاسكندرية.

١٠. درويش، محمود (٢٠٠٥م). محمود درويش الديوان الأعمال الأولى ١ و٢ و٣. بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر.

١١. رستم پور ملكي، رقية؛ شيرزاده، فاطمة (١٣٩١ش). «التقاطب المكانيّ في قصائد محمود درويش الحديثة». مجلّة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد ٩، صص٥٣-٧٦.

Archive of SID

www.SID.ir

١٢. زارع، آفرين؛ سلطان آبادي، نجمة (١٤٣٦هـ). «التكرار من منظار علم النص ودوره في تماسك النص على نظرية هاليداي وحسن (الخطبة القاصعة من نهج البلاغة أنموذجا)». مجلة اللغة العربية وآدبها، السنة ١١، العدد ١، صص١٢٥-١٣٦.

١٣. الشاذلي، عبدالسلام محمد (٢٠٠٦م). تجربة المدينة في الشعر العربي المعاصر، صنعاء نموذجا. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤. طاهري، علي؛ قره خاني، ناصر (١٣٨٩ش). «تحليل الثنائيات الضدية في شعر المقاومة اللبنانية». مجلّة التراث الأدبي، س٢، ع٧، صص ١٠٤-٩٣.

١٥. عبّاس، إحسان (١٩٧٨م). اتّجاهات الشعر العربيّ المعاصر. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

١٦. عبدالله، منى محمد أنور (٢٠٠٨م). «الرمز في الفن الشعبيّ التشكيلي بمصر واستخدام رموز الحبّ والكراهية في تصميم المنسوجات». المؤتمر الدولي الثالث عشر لكلية الآداب والفنون "ثقافة الحبّ والكراهية"، جامعة فيلادلفيا، صص١-٢٣.

١٧. عبد ربّه، ليانة عبد الرحيم كمال (٢٠١٢م). المكان وتحوّلات الهوية عند محمود درويش. رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، فلسطين.

١٨. فتحي دهكردي، صادق؛ حسيني، سكينة (١٤٣٦هـ). «ملامح من الواقعة الاجتماعية في شعر إيليا أبي ماضي». مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة ١١، العدد ٢، صص٣٠٥-٣٢٧.

١٩. الفريجات، عادل (١٩٩٨م). «رحلة في رحاب فكرة الزمن ووجوهها». المعرفة، العدد ٤٢٣، صص١٧٩-١٩٨.

٢٠. القباني، هبة فاروق (٢٠٠٧م). المدينة (التعريف والمفهوم والخصائص) دراسة التجمعات الحضرية في سورية. جامعة دمشق، كلية الهندة المعمارية.

٢١. ناصر، أمجد (٢٠٠٨م). جدل الوطنيّ والذاتيّ والجمالي عند محمود درويش. صحيفة القدس العربيِّ، ملحق خاصّ، السبت، ٢١ سبتمبر.

٢٢. وازن، عبده (٢٠٠٦م). محمود درويش الغريب يقع على نفسه قراءة في أعماله الجديدة. بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر.

Archive of SID

www.SID.ir